جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

جهود
اللّغويين المتقدمين
في تأويل متشابه القرآن الكريم

الدكتور
عمر مسلّم العكش
جامعة عجمان

العدد الرابع والعشرون
للعام ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م
الجزء الأول

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٠م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

جهود اللّغويين المتقدمين في تأويل متشابه القرآن الكريم

عمر مسلّم العكش

قسم اللغة العربية ـ جامعة عجمان ـ عجمان ـ الإمارات

البريد الإلكتروني: ekichomar@gmail.com

الملخص

حاولت الدراسة أن تبرز جهود اللّغويّين التي وضعت العرب والمسلمين على أبواب منعطف تاريخي بدؤوا به خطوتهم الأولى في التفكير اللّغويّ، وكانت نقطة الانطلاق التماس غرائب القرآن الكريم، وإعرابه، وتأويل مشكله، والشروع في التأليف، ووضع الرسائل والكتب والمصنفات في علوم القرآن التي توفرت على دراسة الألفاظ الغريبة أو دراسة المعاني والمسائل الدينية، وقد حفز اشتمال القرآن على المتشابه العلماء على الاشتغال بالعلوم الكثيرة التي تمكنهم من فهم الآيات المتشابهات، فجدُّوا في بيان معانيها، وتوضيح مشكلاتها اللّغويّة والنحوية والصرفية وشرح ألفاظها الغامضة، ومفرداتها الغريبة، وإزالة الغموض من متشابهها، يحفزهم على ذلك الدفاع عن العقيدة الإسلاميّة والتصدِّي للطاعنين في القرآن، والاجتهاد في تأكيد أصالة مفرداته الثابتة التي أتى بها الوحي الإلهي، بما ينسجم مع روح هذا الكتاب المنزل، والدلالات السليمة للعربية الفصحى، وتأويل مشكل آياته، حتى يستوي في فهمه السامعون. وبيان نواحي إعجازه وتناسق سوره وآياته، وتكامله في وحدته، وهم يهدفون في هذا التبيين إلى هدم كل ما أشاعه المغرضون حول الكتاب الكريم، من مزاعم التناقض والغموض، والتفاوت في البيان، وقد تسلحوا باللّغة، ليردوا عليهم أقوالهم، ويفتدوا مزاعمهم، ويبطلوا حججهم، معتمدين في ذلك على قدراتهم اللّغويّة ومخزونهم اللّغويّ ليصححوا ما اعتقدوا أن المغرضين قد أخطؤوا فهمه، محتكمين في تأويل اللفظ القرآني إلى تداوله الحي الثابت في أكثر من مجال قرآني وتراثي عربي.

الكلمات المفتاحية : جهود اللّغويين ، اللغويين المتقدمين ، تأويل المتشابه ، متشابه القرآن الكريم ، المتشابه ، علماء اللغة .

The efforts of advanced linguists in interpretation are similar to the Qur'an

Omar Muslim Ekich
Arabic Language University of Ajman
Email: ekichomar@gmail.com

Abstract

The study tried to highlight the efforts of the linguists that put Arabs and Muslims at the gates of a historical turning point, in which they started their first step in the linguistic thinking, and the starting point was to seek the curioioads of the Holy Koran, its Arabness, the interpretation of its problem, and the beginning of writing. The development of letters, books and works in the Qur'an sciences that were available to study foreign words or study religious meanings and issues, and the inclusion of the Qur'an stimulated scholars to engage in the many sciences that enable them to understand similar verses, and they found themselves in their statement of meanings, clarifying their linguistic, linguistic and linguistic problems, and the classroom, and explaining their vague terms, and strange vocabulary. The removal of ambiguity from its similar lines, motivates them to defend the Islamic faith and to confront the believers in the Qur'an, and to strive to confirm the authenticity of his constant vocabulary that came with the divine revelation, in keeping with the spirit of this house book, and the sound indications of the healthy Arab. And to make sense of his problem, so that he can settle his understanding. In this regard, the statement of his admiration, the consistency of his pictures and his integration into his unity, and they aim at destroying all the rumors made by the objectionable people about the noble book, the allegations of contradiction and ambiguity, and the inequality in the statement, and they have been armed with the language, so that they can speak their words, refute their claims, and end their arguments. Based on their language abilities and language stocks to correct what they thought the ulders had misunderstood, taking into account the interpretation of Qur'anic pronunciation to its constant, neighborhood debate in more than one Arab Qur'anic and heritage field.

Keywords: **Language efforts , advanced language , similar interpretation , similar Qur'an similarity , similar , language scientists .**

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

كان للغويين العرب المتقدّمين إسهام مبكّر في البحث اللّغويّ الــذي وضع الأسس ومهّد السبل لنهضة علم اللّغة العام كما عرفته الإنسانية فيما بعد بكل تشَعُّبه ونظرياته.

وكان المنطلق إلى هذا الموضوع دينيًا في الأصل، ذلك أن أبحاث اللّغويّين العرب نشأت تلبية لنزوع عقلي يهدف إلى معالجة قضية غير لغوية في جوهرها، ولكن لم يكن من سبيل إليها إلا باللّغة، وأعني بذلك قضية العقيدة ممثّلة بالقرآن الكريم، ومن هنا كان اتجاه الأوائل من لغوينا دينيًّا قبل أن يكون لغويًا. فقد أقلقهم أنّ من الصحابة من يقفون حائرين أمام بعض ألفاظ القرآن الكريم بسبب عدم معرفتهم معناها الدقيق، أو تهيبهم من تفسيرها على وجه قد لا يوافق المقصود بها في تعاليم العقيدة، أو القصد الشرعي، ومثل هذا ينبني على احتمال اللغات ويعرف بالتأويل، لا بتحقيق المعنى، وغير خفي أن هذا كله يفي الحاجة الماسَّة إلى المعرفة اللّغويّة المتنوعة، والتسلح بذخيرة كافية من العلم حتى يصبح المفسّر مؤهلًا للقيام بمهمته الدينيَّة اللّغويّة، وبالنظر إلى هذه الاعتبارات ومراعاتها كان الحضّ على دراسة القرآن الكريم وفهمه ومعرفة لغة العرب وأساليب كلامهم، وقال أحد العلماء: " يحتاج من تكلَّم في تفسير كتاب الله عزّ وجلّ إلى عشر خصال، إن أخطأ واحدة منها كان السكوت أولى به. إحداها: أن يكون عالمًا بظاهر التنزيل، عارفًا باختلاف القراءات وما يختلف به المعنى

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وما لا يختلف. والثانية: أن يكون عارفًا بلغة العرب وطريقة النحو والإعراب"[١]. وقال السيوطي: " لا يُقْرِئ القرآن إلى عالم باللّغة"[٢].

ولذلك كان الحرص على فهم القرآن الكريم وتفسير غريبه وتأويل مشكله استكمالًا لفهم العقيدة الإسلاميّة، وتنقيتها، وخدمة لها، وصونًا للغة القرآن الكريم من فساد الألسنة واللحن الذي بات متوقَّعًا بما له من آثار غير حميدة في توجيه الآيات الكريمة. وقال ابن الأثير في هذا الصدد: " ...وجاء التابعون لهم "للصحابة" بإحسان، فسلكوا سبيلهم، ولكنّهم قلُّوا في الإتقان عددًا، واقتفوا هديهم وإن كانوا مدُّوا في البيان يدًا، فما انقضى زمانهم على إحسانهم إلاّ وكان اللسان العربيّ قد استحال أعجميًّا أو كاد، فلا ترى المستقلّ به إلاّ آحادًا "[٣].

وقال ابن فارس: " فمن أراد معرفة كتاب الله – جلّ وعزّ – وما في سنة رسول الله ﷺ من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب لم يجد من العلم باللّغة بدًّا "[٤]. فإن عبارتيْ" معرفة كتاب الله " و "العلم باللّغة" وما تتضمنانه من دلالة على الإلمام أو الفهم لبعض جوانب اللّغة لتكون أدوات ووسائل موصولة إلى " فهم" لغويّ ودينيّ.

(١) مقدمتان في علوم القرآن: ١٧٤.
(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ٣٠٢/٢.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر: ١ / ٤.
(٤) الصاحبي في فقه اللغة: ٦٤.

جهود أئمّة اللّغة المتقدّمين

في تأويل متشابه القرآن الكريم:

ملك القرآن الكريم على المسلمين الأوائل قلوبهم، وأضحى همهم الأوحد قراءته والاستماع إليه، وكان الصحابة عربًا خلَّصًا، يتذوقون الأساليب الرفيعة، ويفهمون ما ينزل على رسول الله ﷺ من الآيات البينات، فلم تكن الحاجة ماسّة إلى وضع تأليف في علوم القرآن في عهد رسول الله ﷺ والصحابة، وظلت علوم القرآن تروى بالتلقين والمشافهة على عهد رسول الله ﷺ ، ثمّ على عهد خليفتيه أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما– وفي خلافة عثمان ﷺ بدأ اختلاط العرب بالأعاجم، وأمر عثمان ﷺ أن يجتمعوا على مصحف إمام، وأن تنسخ منه مصاحف للأمصار، وأن يحرق الناس كلّ ماعداها، فوضع بذلك الأساس لعلم رسم القرآن، أو علم الرسم العثماني، كما أمر علي ﷺ أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة (٦٩هـ) بوضع بعض القواعد للمحافظة على سلامة اللّغة العربيّة، فكان علي ﷺ بذلك واضع الأساس لعلم إعراب القرآن الكريم، ثم تتابع التأليف في علوم القرآن، ومنها علم التفسير، وعلم أسباب النزول، وعلم المكيّ والمدني، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن وتأويل مشكله.

وفي عصر التأليف الأول، كان العلماء يهتمون بالتفسير قبل كلِّ شي، لأنه أمُّ العلوم القرآنية، ونشأ التفسير بالرأي إلى جانب التفسير بالمأثور، وفُسِّر القرآن كلّه، وجزء منه وسورةٌ، وأحيانًا آية أو آيات خاصة كآيات الأحكام.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

واسترعى انتباه علماء التفسير قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آيات محكماتٌ هُنَّ أم الكتاب، وأُخَر متشابهات، فأمّا الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلاّ الله، والراسخون في العلم يقولون آمنّا به، كلٌّ من عند ربنا، وما يذكّر إلا أولو الألباب﴾.(١)

وقد حمل ذكر المحكم والمتشابه العلماء على وضع مؤلّفات كثيرة في هذا العلم، لبيان معاني بعض آيات من الكتاب الكريم، وهم متّفقون على أنّ المحكم من الآيات هو الذي يدل على معناه بوضوح لا خفاء فيه، ولذلك لم يبحثوا فيه، لأن قراءته كافيه لفهم المراد منه، أمَّا المتشابه فهو الذي يخلو من الدلالة الراجحة على معناه، ويدخل في المتشابه: المجمل والمؤول، والمُشْكِل؛ لأن المجمل يحتاج إلى تفصيل، والمؤوَّل لا يدلّ على معناه إلا بعد التأويل، والمُشْكِل خفيّ الدلالة، فيه لَبْسٌ وإبهام.

وقد حفز اشتمال القرآن على المتشابه العلماءَ على الاشتغال بالعلوم الكثيرة التي تمكنهم من فهم الآيات المتشابهات، فجدّوا في بيان معانيها، وتوضيح مشكلاتها اللّغويّة والنحوية والصرفية، وشرح ألفاظها الغامضة، ومفرداتها الغريبة، وإزالة الغموض من متشابهها، وتأخذ هذه المؤلفات من كل علم بطرف، فهي آخذة من اللّغة بطرف، ومن التفسير، وبيان الأحكام بطرف، ولا تستقصي هذه المؤلفات تفسير آيات القرآن آية آية.

(١) آل عمران /٧.

وتذكر المصادر عددًا كبيرًا من أئمة اللّغة الذين وضعوا مؤلفات عديدة في تأويل مشكل القرآن، منهم: واصل بن عطاء:١٣١ هـ[١]، ويونس ويونس بن حبيب": ١٨٢هـ"[٢]، وأبو جعفر محمد بن حسن الرؤاسي:١٨٧هـ[٣]، والكسائي: ١٨٩هـ[٤]، وأبو فيد مؤرِّج السدوسي: ١٩٥هـ[٥]، وأبو محمد اليزيدي: ٢٠٢هـ[٦]، وقطرب: ٢٠٦هـ[٧]، والفرّاء: ٢٠٧ه[٨]، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ٢١١هـ[٩]، والأخفش "-٢١٥هـ"[١٠]، وأبو عبيد القاسم بن سلاّم"-٢٢٤هـ"[١١]، وابن قتيبة الدينوري" -٢٧٦هـ"[١٢].

ومن تلك المؤلفات وصلت كتب معاني القرآن للفرَّاء، ومجاز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرآن للأخفش، وتأويل مشكل القرآن، وكتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة.

---

(١) وفيات الأعيان: ١١/٦.
(٢) الفهرست: ٥٥. وذكر أن له كتابين: صغير وكبير.
(٣) السابق: ٥٥. ومعجم الأدباء: ١٢٥/١٨، وإنباه الرواة: ٥١.
(٤) السابق: ٥٥. ومعجم الأدباء: ٢٠٢/١٣.
(٥) السابق: ٥٥. ووفيات الأعيان: ٣٠٤/٥.
(٦) السابق: ٥٥. ووفيات الأعيان: ١٨٣/٦.
(٧) السابق: ١٢٩. وإنباه الرواة: ٢٢٠/٣. ومعجم الأدباء: ٥٣/١٩.
(٨) طبقات المفسرين: ٣٢٦/٢.
(٩) بغية الوعاة: ٢٩٥/٢.
(١٠) طبقات المفسّرين: ٣٥/١.
(١١) بغية الوعاة: ٣٧٦/٢. وإنباه الرواة: ١١٠/٣.
(١٢) مراتب النحويين: ١٣٦، والفهرست: ٨٥. وتاريخ بغداد: ١٧٠/١٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وأطلق السمَّري راوي كتاب " معاني القرآن " للفرَّاء، اسم " تفسير مشكل إعراب القرآن الكريم" على هذا المؤلَّف. وهدف الفرَّاء إزالة اللبس عن الآيات المشكلة التي رأى فيها مشكلة لغوية أو نحوية أو صرفية، وشرح ألفاظها الناقصة، ومفرداتها الغريبة، وأزال الغموض من متشابهها؛ ولذلك تجاوز الآيات المحكمات لوضوحها وعدم الحاجة إلى الوقوف عندها.

ويعكس منهج الكتاب ذهن الفرَّاء المنظَّم، فقد راعى ترتيب تسلسل سور القرآن الكريم، فبدأ بسورة الفاتحة، فالبقرة، فآل عمران، وانتهى بسورة النّاس، كما راعى تسلسل ترتيب الآيات التي يعالجها في السورة نفسها، فبدأ – مثلًا– بالآية الأولى التي رأى فيها مشكلة ما، وانتقل إلى الآية التالية، وهكذا حتى يأتي على الآيات المتشابهات آية آية. ولم تتمحَّض معالجته للآيات المتشابهات على الجانب اللّغويّ، فقد تناولت جوانب مختلفة، وذلك حسب طبيعة المشكلة التي يراها في الآية، فقد عالج رسم القرآن في كلمة " اسم "، وعلَّل حذف الألف في البسملة بالتخفيف(١)، وعالج القراءات القرآنية، فوقف عند قراءة قوله تعالى: (الحمد لله)، وناقش أوجه قراءتها بالرفع، والفتح، والكسر، والتمس لكل وجه علَّه(٢). وعالج مسائل نحوية، وناقش إعراب (غير) و (لا) في قوله تعالى: (غير المغضوب عليهم ولا الضّالين)(٣).

(١) معاني القرآن: ٣٠٢/١.
(٢) السابق: ٣٠٣/١.
(٣) الفاتحة: ٧. ومعاني القرآن: ٨/١.

وناقش تذكير الفعل وتأنيثه في قوله تعالى: (زيّن للذين كفروا الحياة الدنيا)[(١)]. وذهب إلى زيادة (لا) في قوله تعالى: (ما منعك ألاّ تسجد)[(٢)]، وعالج مسائل صرفية، وناقش قوله تعالى: (وفومها وعدسها وبصلها)[(٣)]. واستشهد على ظاهرة الإبدال بسماعه من بني أسد إبدالهم الفاء من الثاء كثيرًا[(٤)]. وعالج القراءات القرآنية، وناقش قراءة الحسن في قوله تعالى: (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به)[(٥)]. فاحتجَّ بقول امرأة من طيّئ سمعها في توجيه الهمز في دريت ودرأت[(٦)] .

واعتمد الفرَّاء على حسِّه اللّغويّ السليم، وعلى خبرته بأسرار العربيّة وأساليبها، وقلَّب الآية على وجوهها، وناقش قوله تعالى: (ذلك الكتاب)[(٧)]. فقال: يصلح فيه (ذلك) من جهتين، وتصلح فيه (هذا) من جهة، فأمّا أحد الوجهين من (ذلك) فعلى معنى: هذه الحروف يا أحمد، ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أوحيه إليك، والآخر أن يكون (ذلك) على معنى يصلح فيه (هذا)، لأن قوله (هذا) و (ذلك) تصلحان في كل كلام إذا ذكر ثم أتبعته بأحدهما بالإخبار عنه، ألا ترى أنك تقول: " قد قدم فلان "، فيقول السامع: " قد بلغنا ذلك" و" قد بلغنا هذا الخبر". فصلحت فيه " هذا " لأنه قد قرب من جوابه، فصار كالحاضر الذي يشير إليه، وصلحت فيه " ذلك "

---

(١) البقرة: ٢١٢. والسابق: ١/١٢٥، ١٣١.
(٢) الأعراف: ١٢. والسابق: ١/٢١ و ٤٦و ٢٤٤و ٣٧٤.
(٣) البقرة: ٦١.
(٤) معاني القرآن: ١/٤١.
(٥) يونس: ١٦.
(٦) معاني القرآن: ١/٤٥٩.
(٧) البقرة: ٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

لانقضائه، والمنقضي كالغائب، ولو كان شيئًا كأنما يُرَى لم يُجزْ مكان " ذلك " " هذا " ولا مكان " هذا " " ذلك".. وفي قراءة عبد الله بن مسعود: " هذا فذوقوه " وفي قراءتنا " ذلك فذوقوه"[(١)]. فأمّا ما لا يجوز فيه " هذا " فلو رأيت رجلين تَذكُرُ أحدهما لقلت لِلَّذي تعرف: مَنْ هذا الذي معك؟ ولا يجوز ههنا: من ذلك؟ لأنك تراه بعينك.

وتحدّث الفرّاء عن مظاهر الإعجاز في القرآن، فذكر الالتفات، والمجاز، والإيجاز، والحذف، والاستفهام، والتعبير عن النفي بالتعجب، وعن الأمر بالجزاء[(٢)]، كما تحدّث عن أسباب النزول[(٣)]، وذكر عادات الجاهليّين الجاهليّين وأخبارهم[(٤)]، واعتمد الفرَّاء في معالجته للآيات المتشابهات على على آراء العلماء والمفسِّرين والقرَّاء، كابن عبَّاس، ومجاهد، وغيرهما[(٥)]، وغيرهما[(٥)]، وأخذ عن الأعراب الفصحاء والقبائل الفصيحة كقبيلة أسد[(٦)]. أسد[(٦)].

أما مصادر شواهده فمتنوّعة، وعلى رأسها شواهد القرآن نفسه، فقد استشهد بالآية على الآية، ومنها الشعر الجاهليّ والإسلاميّ، ومنها القراءات القرآنية.

---

(١) الأنفال: ١٤.
(٢) معاني القرآن: ١٤/١، ٢٣، ٤٨، ٦٣، ٤٢٣، ٤٤١.
(٣) السابق: ٢٤/١، ٤٣، ٧٥.
(٤)- السابق: ١٢٢/١.
(٥) السابق: ٣٤٩/١.
(٦) السابق: ٤١/١.

ويبدو لنا الفرّاء من خلال كتابه عالمًا بالقرآن وقراءاته، وبلغة العرب وعلومها، وبالشعر الجاهليّ والإسلاميّ، وبالعلوم الدينيّة من فقهٍ وتفسير، فجاء الكتاب ليعكس ثقافته الموسوعية، فهو يجمع من كل موضوع بطرف، فقد أخذ من العلوم الآنفة كلها، وصبَّها في خدمة هدفه الأساسي، وهو تأويل الآيات، والتماس حلول لما رآه من مشكلها ومتشابهها. وتبدو في الكتاب المظاهر الأولى لطرائق التأليف اللّغويّ، فقد اختلطت فيه الدراسات القرآنية بالدراسات اللّغويّة، ولذلك يحتل الكتاب مكانة في المكتبتين الدينية واللّغويّة على حدٍّ سواء.

ثم وضع أبوعبيدة معمر بن المثنى كتاب " مجاز القرآن "، وقد هدف إلى بيان وشرح ما غمض من معاني آيات القرآن الكريم وألفاظه، بعد أن مسَّت الحاجة إلى وضع كتاب يعين الدّارسين على تدبُّر آيات الذكر الحكيم، بعد أن بَعُدَ العهد بعصر التنزيل، كما قال أبوعبيدة في مجازه: " فلم يحتج السلف، ولا الذين أدركوا وجهه إلى أن يسألوا النبي ﷺ عن معانيه " لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم عن معانيه، وعمّا فيه ممّا في كلام العرب مِثْلُه في الوجوه والتلخيص، وفي القرآن مِثْلُ ما في الكلام العربيّ من وجوه الإعراب، ومن الغريب والمعاني "((١)).

ويرى أبوعبيدة أنّ القرآن الكريم نصٌّ عربي أُنزِل بلسان عربي مبين، ومصداق ذلك قوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه)((٢)). وما دام القرآن جاريًا على سنن العرب في أحاديثهم ومحاوراتهم، وما دام يحمل كلَّ خصائص الكلام العربيّ من زيادة وحذف

(١) مجاز القرآن: ١ / ٨.
(٢) إبراهيم /٤.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وإضمار، وتقديم وتأخير، فلذلك لم يحتج الذين سمعوه من الرسول والصحابة في فهمه إلى السؤال عن معانيه.

وأمّا " المجاز " عند أبي عبيدة فهو بمعنى التفسير والتأويل والتقدير والغريب، فهو يستعمل لتفسير الآيات هذه الكلمات: " مجازه كذا "و " تفسيره كذا" و" معناه كذا "و " غريبه " و" تقديره " و " تأويله "، على أنَّ معانيها واحدة أو تكاد، ومعنى هذا أن كلمة " المجاز " عنده عبارة عن الطريقة التي يسكلها القرآن في تعبيراته. وهذا المعنى أعمُّ من المعنى الذي حدّده علماء البلاغة لكلمة "المجاز" فيما بعد.

وقدَّم أبوعبيدة لكتابه بمقدِّمة تناول فيها الحديث عن معنى كلمة " القرآن"، ولماذا سميِّ كتاب الله قرآنًا، فقال: " القرآن ": اسم كتاب الله خاصَّة، ولا يسمَّى به شيء من سائر الكتب غيره، وإنّما سمِّي قرآنا؛ لأنه يجمع السور فيضمها، وتفسير ذلك في آية من القرآن، قال الله جلَّ ثناؤه: (إنَّ علينا جمعه وقرآنه)[(١)]، مجازه: تأليف بعضه إلى بعض، ثمَّ قال: (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)[(٢)]، مجازه: فإذا ألَّفنا منه شيئًا، فضممناه إليك فخذ به، واعمل به، وضمَّه إليك.. ثم يشرح معنى "السورة" من القرآن، مهموزة، وغير مهموزة، وتحدّث عن جمعها، ثم شرح معنى "الآية" من القرآن، وتحدَّث عن جمعها وتعدّد أسمائها، ثم ذكر أسماء سور القرآن، فقال: "فمن ذلك أنَّ "الحمد لله" تسمّى" أم الكتاب" لأنه يبدأ بها في أول القرآن، وتعاد قراءتها فيُقْرَأ بها في كل ركعة قبل السورة، ولها اسم آخر، فيقال لها: " فاتحة الكتاب "؛ لأنه يُفْتتح بها في المصاحف، فتكتب قبل

(١) القيامة /١٨.
(٢) القيامة /١٨.

القرآن، ويفتتح بقراءتها في كل ركعة قبل قراءة ما يقرأ به من السور في كل ركعة..

كما تحدّث أبو عبيدة في المقدِّمة عن الظواهر اللّغويّة في القرآن، فقال: "ففي القرآن ما في الكلام العربيّ من الغريب والمعاني... ومجاز ما جاء لفظه الواحد ووقع على الجميع، ومجاز ما جاء لفظه الجميع ووقع معناه على الاثنين... ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد إذا أشرك بينه وبين آخر مفرد... ومجاز المجمل استغناء عن كثرة التكرير، ومجاز المقدَّم والمؤخَّر، ومجاز ما يحوَّل من خبره إلى خبر غيره، بعد أن يكون من سببه، فيجعل خبره للَّذي من سببه، ويترك هو. وكلُّ هذا جائزٌ قد تكلموا به"[(١)].

وختم أبوعبيدة مقدِّمة الكتاب بالكلام على (بسم الله) فناقش معناها، ولم يناقش رسمها، كما فعل الفرَّاء، فقال: (بسم الله)، فمجاز تفسيره مُضْمَر كأنك قلت: بسم الله قبل كل شيء، وأول كل شيء، ونحو ذلك، قال عبد الله بن رواحة:

بسم الله وبه بدينا *** ولو عبدنا غيره شقينا

يقال: بدأت وبديت، وبعضهم يقول: بدينا. " الرحمن " مجازه ذو الرحمة، و"الرحيم" مجازه الراحم، وقد يقدِّرون اللفظين من لفظ واحد، وذلك لاتساع الكلام عندهم، وقد فعلوا مثل ذلك، فقالوا: ندمان ونديم.

(١) مجاز القرآن ١/١-١٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقد حشد أبو عبيدة في مقدمة الكتاب كثيرًا من الشـــواهد القرآنيـــة التي تؤيد آراءه التي ذهب إليها، وكثيرًا من الشواهد الشعرية، ولغات العرب والقراءات.

والتزم أبو عبيدة بتناول سور القرآن حسب تسلسلها، فبدأ بالفاتحة، وانتهى بسورة الناس، كما التزم بترتيب الآيات حسب ورودها في كل سورة، ولم يستقص شرح الآيات كلها، بل وقف عند الآيات التي رأى فيها مشكلة ما، فعالجها بحسب نوع المشكلة، والتمس لها تأويلًا لغويًا أو نحويًا أو صرفيًّا، أو خرَّج قراءة من القراءات القرآنية، معتمدًا على خبرته بأسرار العربيّة، وفقهه بأساليبها، واستعمالاتها، ووقوفه على خصائص التعبير فيها، ونهج في تأويله الآيات المشكلة منهجًا لغويًا، وفسَّر غريب ألفاظها، وعرض لإعرابها، وشرح أوجه تعبيرها، واستعان على تفسيره الآيات بالشعر العربيّ الجاهليّ والإسلاميّ، متأثرًا بمنهج ابن عبّاس – رضي الله عنهما – وصَرَفَتْه عنايته بالجانب اللّغويّ عن الاشتغال بالقصص القرآني، وتفصيل القول فيه، كما صرفته عن تتبُّع أسباب النزول إلاّ عندما يقتضي فهم النص القرآني التعرَّض لذلك.

وخالف أبو عبيدة أئمة اللّغة في علاجهم بعض الاستعمالات اللّغويّة القرآنية وتأويلهم بعض الآيات، وهذا يدل على تمكنه من اللّغة، وأوجه تصريفها، من ذلك معارضته للفرَّاء في استعمال " لا " في قوله تعالى: (غير المغضوب عليهم ولا الضَّالِّين)[(١)]، فقال أبو عبيدة: إنّها من حروف الزوائد لتتميم الكلام...

(١) الفاتحة /٧.

وكما اعتمد على اللّغة وشواهدها في تفسير ألفاظ القرآن الكريمة وتأويل مشكل آياته، فقد استخدم عقله، ورأيه الخاص، وذوقه اللّغويّ في تفسير القرآن الكريم؛ ولذلك احتل كتابه مكانة كبيرة بين كتب اللّغة والتفسير، فهو غنيٌّ بمادَّته وشواهده، وقد كشف عن غزارة علم أبي عبيدة وسعة اطلاعه، وقال ابن خيرة الإشبيلي: "وأول كتاب جُمِع في غريب القرآن ومعانيه كتاب أبي عبيدة معمر ابن المثنى وهو كتاب "المجاز"[(١)].

ثم جاء بعد الفرَّاء وأبي عبيدة العالم اللّغويّ الأخفش المتوفى سنة (٢١١هـ)، وألَّف كتاب " معاني القرآن ". ولا شكَّ أنه أفاد منهما، وتأثر بمنهجهما، وسلك مسلكهما في ترتيب كتابه، فالتزم بتسلسل سور القرآن الكريم وآياتها، كما سار على مبدأ الانتخاب، فتناول ما أشكل من الآيات دون استقصائها، ووقف عند الآيات التي تحتاج إلى تأويل أو شرح أو تعليق، وتجاوز الآيات المحكمات الواضحات، وتعرَّض لموضوعات متعدِّدة، منها لغوية، ونحوية، وصرفية، ولكنَّ هدفه كان إزالة اللبس عمَّا أشكل من الآيات المتشابهات، من ذلك ما ذهب إليه في تفسير قوله تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هُنَّ أمُّ الكتاب، وأخر متشابهات)[(٢)]، فقال: (منه آيات محكمات) يعني: مبيِّنات للحلال والحرام ولم يُنْسَخْن. وهن الثلاث في الأنعام، أولهما: (قل تعالوا أتل ما حرَّم ربكم عليكم)[(٣)]. والآيتان بعدها. قوله (هن أم الكتاب)، يقول: هُنَّ الأصل. (وأُخر متشابهات). وهن:

(١) فهرست ابن خيرة الإشبيلي: ١٣٤.
(٢) آل عمران /٧.
(٣) الأنعام /١٥١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

" المص " و" الر" و"المـــر"، اشتبهن على اليهود. فقال الله تعالى: (فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)[(١)].

واعتمد الأخفش في منهجه اللّغويّ كلام العرب، وعدَّه أساسًا مهمًـــا من أسس الكتاب؛ لأنه الكلام الذي يُقاس به غيره، ويعتمد عليه في معرفـــة القصد فيما نحا نحوه، واتخذ سمته، وإذا كان القرآن الكريم من كلام العرب، فإنَّ معرفة جوانبه لغةً ونحوًا وصرفًا وبلاغة، لا تتم إلاّ بالرجوع إلى كـــلام العرب، وتبيين خصائصه ومناهجه في التأليف والتعبير.

وكان السماع عنصرًا من عناصر مادة الكتاب، فكثيـــرًا مـــا يقـــول الأخفش: قد سمعت من العرب من ينشد هذا البيت بغير لام:

فيبك على المنجاب أضياف قفرة * سروا وأسارى لم تفك قيودها**

يريد " فليبك " فحذف اللام[(٢)].

وكان الأخفش يعتمد على سماعه من الأعراب تارة، وعلـــى ســـماع غيره تارة أخرى، من ذلك قوله: (تقول: " نذر يَنْذِر على نفسه نـــذرًا " و " نذرت مالي فأنا أنذره" أخبرنا بذلك يونس عن العرب)[(٣)].

وأفاد الأخفش من لغات العرب في بيان وجوه القـــراءات القرآنيـــة، وشرح ما يجدُّ من المواقف في دراسته معاني القرآن الكريم، فذكر لغـــة أزد الشراة ، لكثرة إسكان هاء الإضمار فيها[(٤)]، وذكر لغة أسد فـــي تأنيثهـــا :

---

(١) آل عمران /٧.
(٢) معاني القرآن: ٢٣/١.
(٣) معاني القرآن: ٢٣/١.
(٤) السابق: ٣٠/١.

الهدى "[(١)]، وذكر لغة تميم في نطقها الفعل " يستحي " بياء واحدة[(٢)]، وفي كسرها هاء الضمير في "فيه" و"منه" و "عنه"، سواء أورد حرف مكسور، أو ياء ساكنة قبلها أم لم يرد[(٣)].

كما أفاد من لغات العرب في تذكير وتأنيث "الإنجيل" فذكر قول بعضهم: "هي الإنجيل". وقول بعضهم "هو الإنجيل"[(٤)]، ولكنه لم ينص على ذكر القبائل التي تؤنث أو تذكر هذا الاسم.

واعتمد لغات العرب حين ذكر أبواب الفعل المجرد، فقال: بطَشَ يبطُش يبطِش، وحَشَر يحشُر يحشِر، وحَلَّ يَحُلُّ يحِلُّ. وذكر أفعالًا تجئ على "فعلت"و"أفعلت" وهي بمعنى واحد، من ذلك: بدأ: بدأ الخلق وأبدأ. حزن: حزنته وأحزنته. حلَّ: حللنا وأحللنا[(٥)]. وناقش أحكام الهمزة معتمدًا لغات العرب، فقال: إنَّ من العرب من يقلبها إلى صوت آخر قريب منها، فيبدلها هاء، فيقول في" إيّاك " "هيَّاك"، وعلى ذلك جاءت قراءة من قرأ: (هَيَّاك نعبد)، وهناك من العرب من يقلبها ياءً في " إسرائيل " و " جبرائيل "، فيقول " إسراييل " و "جبراييل"، وفي: "توضأت" "توضيت"[(٦)].

---

(١) السابق: ١/٣٠.
(٢) السابق: ١/٣٠.
(٣) السابق: ١/٣٠.
(٤) السابق: ١/٣٦.
(٥) السابق: ١/٣٧.
(٦) السابق: ١/٤٠، ٤١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وعالج الأخفش مسائل صرفية معتمدًا لغات العرب، من ذلك، كسر الفاء في جمع " فُعْلَه " فيقال: " فِعَل " وضمها في جمع " فِعْلَة " فيقال: " فُعَل " فمن الأول: حُبْوَة وحِبَىً ، ورُشْوة ورِشًا، و صُورَة وصِوَر. ومن الثاني: رِشْوَة ورُشًا[(١)]. كما عالج مسائل نحوية معتمدًا لغات العرب، ممعنًا النظر فيها، يفضّل بعضها على بعض، ويقيسها بقياسات مختلفة، ويقوِّم كُلًا بما يراه، فينعت بعضها بالجودة، كقوله: " من العرب من يقول: " يا أمُّ لا تفعلي" رخَّم، كما قال: "يا صاح". ومنهم من يقول: "يا أمي" و " يا أبي" على لغة الذين قالوا: " يا غلامي "، ومنهم من يقول "يا أب" و "يا أم" وهي الجيدة في القياس[(٢)]. وفضّل لغة أهل الحجاز في قراءة (يستحيي) بياءين، على لغة بني تميم الذين يقولون (يستحي) بياء واحدة. وقال: والأولى هي الأصل. وعلَّل اختلاف وجوه النطق في ألفاظ القرآن الكريم، فأباح الرفع والنصب في قوله تعالى: (ولا يأمركم أن تتخذوا)[(٣)]، وأباح الرفع والنصب في قوله تعالى: (وما كان قولَهم إلاّ أن قالوا)[(٤)]. وعلَّل كثيرًا من القراءات القرآنية معتمدًا على ما ورد من لغات العرب، فمن ذلك " كسر الواو في قراءة (اشتروا الضلالة)[(٥)]، وحذف الياءات من رؤوس الآي في في الوقف وإثباتها في الوصل في نحو (بل لمّا يذوقوا عذاب)[(٦)]، و (

(١) السابق: ١/١، ٤٣.
(٢) معاني القرآن: ٥٠/١.
(٣) آل عمران /٨٠.
(٤) آل عمران/١٤٧. وانظر معاني القرآن: ٦٦/١.
(٥) البقرة /١٦. والسابق: ٢١/١.
(٦) ص /٨. والسابق: ٢١/١.

إيَّايَّ فاتقون)[(١)]. وحذفها في الوقف والوصل في لغة أخرى خلافًا للكتاب. وعلَّل حذف الياء في المنادى المضاف نحو " يا أمَّ " و "يا أب" في لغة، وإثباتها في لغة أخرى[(٢)].

وانصرفت عناية الأخفش إلى الأصوات اللّغويّة، فوصف مخارجها وبيّن صفاتها تقاربًا وتباعدًا، وجهرًا وهمسًا، وإطباقًا وانفتاحًا، وكان يعرض لتقارب المخارج الصوتية من غير وصف أو تعليق تارة، كقوله: وقال تعالى: (قالوا اطَّيَّرنا بك)[(٣)]. فأدغم التاء في الطاء لأنها من مخرجها[(٤)]. وتارة يصف مخارج الأصوات، ويعيِّن مواضعها في الجهاز الصوتي، كقوله: " التاء تدغم أحيانًا في الدال؛ لأن مخرجها قريب من مخرجها، فلما أدغمت فيها حولت فجعلت دالًا مثلها، فأدغمت التاء في الدال، لأن التاء قريبة المخرج من الدال، مخرج الدال بطرف اللسان وأطراف الثنيتين، ومخرج التاء بطرف اللسان وأصول الثنيتين، فكل ما قرب مخرجه فافعل به هذا"[(٥)]. وكان تارة يصف مخارج الأصوات، ويطلق على الأصوات الأصوات نعوتها العلمية المختلفة كقوله: " قال تعالى: (وادَّكر بعد أمَّة)[(٦)]، وإنَّما هي (افتعل من ذكرت، فأصلها " اذتكر "، ولكن اجتمعا في كلمة كلمة واحدة، ومخرجاهما متقاربان، وأرادوا أن يدغموا، والأول حرف مجهور، وإنَّما يدخل الأول في الآخر، والآخر مهموس، فكرهوا أن يذهب

(١) البقرة /٤١.
(٢) معاني القرآن: ٢٢/١.
(٣) النمل /٤٧.
(٤) معاني القرآن: ٢٩/١.
(٥) السّابق: ١٩/١.
(٦) يوسف /٤٥.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

منه الجهر، فجعلوا في موضع التاء حرفًا من موضعها مجهورًا، وهو الدَّال؛ لأنَّ الحرف الذي قبلها مجهور، ولم يجعلوا الطاء؛ لأنَّ الطاء مع الجهر مطبقة، وقال بعضهم (مذَّكر) فأبدل التاء ذالًا، ثمَّ أدخل الذال فيها "(١)".

فالأخفش تناول موضوعات متنوعة، وجمع في كتابه من كل موضوع طرفًا، ونال اهتمام الدّارسين، واعتمد عليه علماء اللّغة والتفسير، واحتلّ مكانة مرموقة في الدراسات القرآنية واللّغويّة.

ثم وضع الإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة (٢٦٧)

كتابه" تأويل مشكل القرآن "، وهدف إلى الردّ على الملحدين الذين اعترضوا كتاب الله بالطعن والتحريف واللغو، فقال: " فأحببت أن أنفح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة والبراهين البيّنة، وأكشف للناس ما يلبسون، فألّفت هذا الكتاب جامعًا لتأويل مشكل القرآن "(٢)".

وقد عرض لما صنع مرّة أخرى، بعد أن شرح معنى المتشابه والمشكل، فقال: " وأصل التشابه أن يشبه اللفظُ اللفظَ في الظاهر، والمعنيان مختلفان ... وفيه يقال: اشتبه عليَّ الأمر، إذ أشبه غيره، فلم تكد تفرِّق بينهما، وشبَّهت عليَّ: إذ لبَّست الحقَّ بالباطل، ثم يقال لكل ما غمض ودقَّ: متشابه، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره، ومثل المتشابه: المُشْكِل، وسمِّي مُشْكلًا لأنه أشكل، أي دخل في شِكْل غيره، فأشبهه وشاكله، ثم يقال لما غمض، وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة: مُشْكِل. وقد بيّنت

(١) معاني القرآن: ١٩/١.
(٢) تأويل مشكل القرآن: ٢٣.

ما غمض من معناه، لالتباسه بغيره، واستتار المعاني المختلفة تحت لفظه، وتفسير المشكل الذي ادّعي على القرآن فساد النظر فيه"[(١)].

بدأ ابن قتيبة كتابه بالحكاية عن الطاعنين، فسرد مطاعنهم على اختلاف أنواعها، ثم عقد أبوابًا للرّد عليهم في وجوه القراءات، وقال: "أمَا ما اعتلُّوا به في وجوه القراءات من الاختلاف، فإنّا نحتج عليهم فيه بقول النبي ﷺ " نزل القرآن على سبعة أحرف، كُلُّها شافٍ كافٍ، فاقرؤوا كيف شئتم"، وإنما تأويل قوله ﷺ: "تزل القرآن على سبعة أحرف" على سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن، يدلك على ذلك قول رسول الله ﷺ : " فاقرؤوا كيف شئتم"[(٢)].

كما ردّ على الطاعنين ما ادَّعوه على القرآن من اللحن، وما نحلوه من التناقض والاختلاف بين آيه، وما قالوه في المتشابه، كما أجاب عن قولهم: ماذا أراد الله بإنزال المتشابه في القرآن، من أراد لعباده الهدى والبيان؟...

ثم ذكر بعد ذلك أبواب المجاز؛ لأن أكثر غلط المتأوِّلين كان من جهته، وبسببه تشعبت الطرق، واختلفت النّحل. وبدأ بباب الاستعارة، ثم باب المقلوب، وباب الحذف والاختصار وباب تكرار الكلام والزيادة فيه، وباب الكناية والتعريض، وباب مخالفة ظاهر اللفظ معناه، ثم ذكر باب الأبواب في الكتاب، وهو باب تأويل الحروف التي ادِّعي على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم، فتحدّث عن الحروف المقطَّعة، واختلاف المفسِّرين فيها، ثمّ

(١) السابق: ١٠١ و ١٠٢.
(٢) تأويل مشكل القرآن: ٣٣و٣٤.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

خلص من الكلام عليها إلى الكلام على مشكل سور القرآن، فذكر ما في السورة منه ثم أوَّله، ولكنه لم يرتِّب السور على حسب ترتيبها المعروف في المصحف، بل ذكرها حسبما عَنَّ له من مشاكلها، وقد لا يستوفي الكلام على مشاكل السورة التي يذكرها، فيعيد ذكرها مرَّة أو مَّرات، مثلما فعل في سورة البقرة، وسورة الأنعام، وسورة النحل، وسورة النساء.

والسورة الوحيدة التي استوفى تأويلها، وشرحها كلَّها- من بين السور التي ذكرها- هي سورة "الجن"، لما فيها من إشكال وغموض، بما وقع فيها من تكرار "إنَّ" واختلاف القرَّاء في نصبها وكسرها، واشتباه ما فيها من قول الله وقول الجن.

وبعد أن فرغ ابن قتيبة من تأويله لمشكل السور التي ذكرها، عقد بابًا عظيم القدر بالغ الأهمية، وهو " باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة " تحدَّث فيه عن نيِّف وأربعين لفظاُ من الألفاظ التي جاءت في القرآن متحدة المباني، مختلفة المعاني، كالقضاء، والبلاء، والأمة، والرؤية، والإمام، والإسلام، والفتنة، والسلطان، والضلال، والنسيان، والحساب، والكتاب...

ثم ذكر بعد ذلك " باب تفسير حروف المعاني، وما شاكلها من الأفعال التي لا تتصرِّف " كأين، وأنّى، ولولا، ولوما، ولا جَرمَ، وتعالى، وهلمَّ، ورويدًا، ولَدُن.

ثم ختم ابن قتيبة كتابه بباب "دخول بعض حروف الصفات مكان بعض".

ونجد ابن قتيبة كثيرًا ما يشرح الآية التي يرى أنّها مُشْكلة شرحًا مطوَّلًا، يزيل كلَّ لَبْسٍ أو غموض يكتنف معناها. من ذلك تفسير قوله تعالى: (قل إنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنَّة إنْ هو إلاَّ نذير لكم بين يدي عذاب شديد)[(١)]، تأويله أنَّ المشركين قالوا: إنّ محمدًا مجنون وساحر، وأشباه هذا من خَرَصهم، فقال الله جلَّ وعزَّ لنبيِّه ﷺ : قل لهم: اعتبروا أمري بواحدة، وهي أن تنصحوا لأنفسكم، ولا يميل بكم هوى عن حق، فتقوموا لله وفي ذاته، مقامًا يخلو فيه الرَّجل بصاحبه فيقول له: هَلُمَّ فلنتصادق، هل رأينا بهذا الرجل جِنِّةً قطّ أو جرَّبنا عليه كذبًا؟ فهذا موضعُ قيامهم مثنى.

ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيفكر وينظر ويعتبر، فهذا موضع قيامهم فرادى، فإنَّ في ذلك ما دلَّهم على أنَّه نذير. وكلٌّ من تحيَّر في أمر قد اشتبه عليه، واستبهم، أخرجه من الحيرة فيه، أن يسأل ويناظر، ثم يفكّرَ ويعتبر[(٢)].

ونجده أحيانًا يشرح الآية شرحًا موجزًا ويختار اللفظة التي يعتقد أنها سبب اللبس، فيفسرها بما يتفق مع سياق المعنى الذي توحي به الآية، من ذلك تفسير قوله تعالى: (وقد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذبونك، ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون)[(٣)]، يريد: أنهم كانوا لا ينسبونك إلى الكذب ولا يعرفونك به، فلمَّا جئتهم بآيات الله، جحدوها، وهم

(١) سبأ /٤٦. وينظر في تأويل مشكل القرآن: ٣١١.
(٢) تأويل مشكل القرآن: ٣١١ و ٣١٢.
(٣) الأنعام /٣٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

يعلمون أنك صادق. والجحد يكون ممَّن علم الشيء فأنكره، يقــول الله عــزَّ وجلَّ: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعُلُوًا)[(١)].

ونجده يذكر في شرح الآية وتأويل مشكلها قولين أو أكثر، ويرتضي جميع الآراء التي تحتملها الآية، ولا يقطع برأي خاص به، ولكنه يختار أولى الأقاويل في اللّغة، من ذلك ما ذكره في تأويل قوله تعالى: (حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِّبوا جاءهم نصرنا فنجِّي من نشاء)[(٢)]. قد تكلِّم المفسّرون في هذه الآية بما فيه مَقنع وغناء عن أن يوضَّح بغير لفظهم... وبعد أن ذكر تفاسيرهم وعلَّق عليها مقارنًا وموازنًا ومرجِّحًا قال: " وهذه مذاهب مختلفة، والألفاظ تحتملها كلها، ولا نعلم ما أراد الله عزَّ وجل، غير أنَّ أحسنها في الظاهر، وأولاها بأنبياء الله–صلوات الله عليهم– ما قالت أم المؤمنين "عائشة" رضي الله عنها "[(٣)].

وقد يرجّح أحد المعنيين، بما يراه ملائمًا لتأويل مشكل الآية، من ذلك تفسير قوله تعالى: (ضرب الله مثلًا عبدًا مملوكًا لا يقدر على شيء، ومن رزقناه مِنَّا رزقًا حسنا فهو ينفق سرًّا وجهرًا)[(٤)]. هذا مَثَــلٌ ضربه الله لنفسه ولمن عُبِــد دونه، فقال: (ضرب الله مثلًا عبدًا مملوكًا لا يقدر على شيء)، فهذا "مثل مَنْ جُعِل إلهًا دونه أو معه" لأنه عاجزٌ، مُدَبَــّر، مملوك لا يقدر على نفع أو ضرٍّ. ثم قال: (ومن رزقناه منَّا رزقًا حسنًا، فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا هل يستوون؟ فهذا "مثله جلَّ وعزَّ"، لأنه الواسع الجواد القادر

(١) النمل /١٤.
(٢) يوسف /١١٠.
(٣) تأويل مشكل القرآن: ٤١٠–٤١٢.
(٤) النمل /٧٥.

الرازق عباده جهرًا من حيث يعلمون، وسرًا من حيث لا يعلمون. وقد قال بعض المفسِّرين: هو "مثلٌ للمؤمن و الكافر" فالعبد هو الكافر، والمرزوق هو المؤمن، والتفسير الأول أعجب إليَّ"[(١)]. ويُخَطِّئ بعض أقوال المفسّرين ويردُّها، من ذلك تفسير قوله تعالى: (قل إن كان للرَّحمن ولد فأنا أول العابدين)[(٢)].

لمّا قال المشركون: لله ولد، ولم يرجعوا عن مقالتهم بما أنزله الله على رسوله عليه السلام، من التبرُّؤ من ذلك، قال الله سبحانه لرسوله عليه السلام: (قل) لهم (إن كان للرحمن ولد) أي: عندكم في ادِّعائكم، (فأنا أول العابدين) أي: أول الموحدِّين، ومن وحدَّ الله فقد عبده، ومن جعل له ولدًا أو نِـــدًّا فليس من العابدين، وإن اجتهد، ومنه قول تعالى: (وما خلقت الجنَّ والإنس إلاَّ ليعبدون)[(٣)]، أي إلاّ ليوحِّدون. قال " مجاهد ": يريد إن كان لله ولد في قولكم، فأنا أول من عبد الله ووحَّده، وكذَّبكم بما تقولون[(٤)]. و " بعض المفسرين الذين يلتمسون لألفاظ كتاب الله – جلَّ ذكره – المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة كتأولهم في قوله تعالى: (وعصى آدم ربه فغوى)[(٥)]، أي: بشم من أكل الشجرة. وذهبوا إلى قول العرب: غوى الفصيل إذا أكثر من اللبن حتى يَبْشَم، وذلك غَوَى –بفتح الواو– يغوي غَيًّـــا. وهو من البشم غوِي –بكسر الواو– يَغْوَى غَوَىً ... ونحن نقول: " عصى وغوى "

(١) تأويل مشكل القرآن: ٣٨٤ و ٣٨٥.
(٢) الزخرف /٨١.
(٣) الذاريات /٥٦.
(٤) تأويل مشكل القرآن: ٣٧٣.
(٥) طه /١٢١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

كما قال الله تعالى، ولا تقول : آدم " عاصٍ ولا غاوٍ " لأنّ ذلك لم يكن من اعتقاد متقدِّم ولا نيَّة صحيحة، كما تقول لرجل قطع ثوبًا وخاطه قد قطعه وخاطه، ولا تقل: " خائط ولا خيَّاط " حتى يكون معاودًا لذلك الفعل معروفًا به"[(١)]. فابن قتيبة يأخذ بظاهر النص أحيانًا، ولا يخرج عن سنن العرب، ولا يحمِّل اللفظة ما لا تحتمل من التأويل، بل يفسّر في حدود النص تفسيرًا لغويًا محدودًا على قدر ما تسمح به معاني الألفاظ الظاهرة، ولا يحاول أن يبعد في التأويل، ويذكر أقوال المفسرين التي تتسق مع تأويله، ويرتضيها ولا يعترض عليها، من ذلك تفسير قوله تعالى: (ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل)[(٢)]. قال: " امتداد الظل ما بين طلوع الشمس، كذلك قال المفسرون ويدلك عليه أيضًا قوله في وصف الجنَّة: (وظلٍّ ممدود)[(٣)]. أي لا شمس فيه، كأنه ما بين هذين الوقتين "[(٤)].

ونرى ابن قتيبة مع أخذه في كثير من الآيات بظاهر المعنى، ونفوره من التأويل البعيد، ومن فرض الاحتمالات الأسلوبية، انطلاقًا من عقيدته ومناصرته لآراء أهل السِّنة، نجده أحيانًا يخرج عن تقليده، ويعارض بعض المفسرين والظاهريين من اللّغويّين في تحكمهم اللفظي، ويرى أن المجاز يعد القطب الذي تدور عليه قضية المشكل، ويقول في ذلك: " وأمَّا الطاعنون على القرآن بالمجاز، فإنهم زعموا أنَّه كذب، لأنّ الجدار لا يريد، والقرية لا تُسْأل. وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلِّها على سوء نظرهم، وقلة أفهامهم،

(١) تأويل مشكل القرآن: ٤٠٢ و ٤٠٣.
(٢) الفرقان /٤٥.
(٣) الواقعة /٣٠.
(٤) تأويل مشكل القرآن: ٣١٤.

ولو كان المجاز كذبًا، وكلُّ فعلٍ ينسب إلى غير الحيوان باطلًا، كان أكثر كلامنا فاسدًا، لأنا نقول: نبت البقلُ، وطالت الشجرةُ، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل، ورخص السعر"[(١)]. ويرى أن القرآن نزل بلغة العرب، وأن اللّغة العربيّة فاقت جميع لغات العالم بسحر البيان واتساع المجاز والتفنن في الأساليب، والمجاز ليس كذبًا لوجود القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وليس عجزًا عن التعبير بالحقيقة؛ لأنها أصلٌ للمجاز، وهو متفرِّع عنها، وكلاهما يكوِّنان الأسلوب العربيّ البليغ الذي نزل به القرآن متحدِّيًا به أرباب البيان وفصحاء العرب، ويقول في ذلك: " وإنّما يَعْرِفُ "فضل القرآن" من كثر نظرُه، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب، وافتنانها في الأساليب، وما خصَّ به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة – قوّة الكلام وتنقيحه والرأي الجيد – والبيان، واتساع المجاز ما أوتيته العرب"[(٢)]. ويؤكد أن القرآن نزل بأساليب العرب، وافتنانها في التعبير، ويقول: " للعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن "[(٣)]. ويقرر ابن قتيبة بأن جهل الناس بأساليب العرب وافتنانها

(١) تأويل مشكل القرآن: ١٣٢.
(٢) السابق: ١٢.
(٣) تأويل مشكل القرآن: ٢٠ و ٢١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

في طرق القول، وتنويعها في مذاهب الكلام هو الذي جرَّهم إلى الاختلاف في الفهم، والغلط في التأويل، لعدم التمييز بين الحقيقة والمجاز، وقال: " وأمّا المجاز فمن جهته غلط كثيرٌ من الناس في التأويل، وتشعبت بهم الطرق، واختلفت النحل"

ومن الاختصار حذف حروف الجر، كقوله تعالى: (وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسِرون)[(١)] أي: كالوا لهم أو وزنوا لهم.

وشارك ابن قتيبة في دخول معترك النزاع الفكري الذي كان يجري في عصره، وحمل لواء أهل السنة والحديث، وردَّ على خصومه الذين اتهموه بأنه كان كرَّاميًّا يميل إلى التشخيص والتشبيه، فألَّف كتاب " الاختلاف في اللفظ والرَّدُّ على الجهميَّة والمشَبِّهة "، ليَدْفَعَ عن نفسه ما رموه به، وتسلَّح باللّغة، ليردَّ عليهم أقوالهم، ويُفنِّد مزاعمهم، ويبطل حججهم، ولم يأخذ بعلم الكلام لأنه لغوي، وليس من شأنه الدخول في مناقشات عقيمة رأى من كان قبله قد هلك بها، وقال: "ولم أعْدُ في أكثر الرَّد عليهم طريق اللّغة، فأمّا الكلام فليس من شأننا، ولا أرى أكثر من هلك إلاّ به"[(٢)].

ويرد على خصومه تأويلهم بعض آيات القرآن الكريم التي رأى أنّها مشكلة تحتاج إلى توضيح وبيان، واعتمد في ذلك على قدرته اللّغويّة ومخزونه اللّغويّ ليصحح ما اعتقد أنّ خصومه قد أخطؤوا فهمه، من ذلك قوله في الرَّدِّ على الجهميَّة والمشبِّهة: " ولما اطَّرد لهم القول على ما

(١) المطففين /٣.
(٢) الاختلاف في اللفظ: ٩٩.

أصَّلوا، ورأوه حسن الظاهر قريبًا من النفوس، يروق السامعين، ويستميل قلوب الغافلين، نظروا في كتاب الله، فوجدوه يَنْقُض ما قاسوا، ويبطل ما أسسوا، فطلبوا له التأويلات المستكرهة، والمخارج البعيدة، وجعلوه عويصًا وألغازًا، وإن كانوا لم يقدروا من تلك الحيل على ما يصح في النظر، ولا في اللّغة"((١)).

ومن الآيات التي عارض ابن قتيبة تأويل القدرية أو المعتزلة قوله تعالى: (يضل من يشاء)((٢)). فهم يرون أنّ الله ينسبهم إلى الضلال. وفي قوله تعالى: (يهدي من يشاء)((٣))، ينسبهم إلى الهداية، ويقول ابن قتيبة في رده: (يضلُّ من يشاء) تعني الإضلال فعلًا، وليس (ينسبهم إلى الضلال) وإلاّ صحَّ أن يقال مكانها يضلّلُهم، كما يقال يخوِّنهم ويفسِّقهم ويظلِّمُهم، أي ينسبهم إلى الظلم. وقال المعتزلة في قوله تعالى: (ما كان لنفس أن تؤمن إلاّ بإذن الله)((٤)). أي ما كان لنفس أن تؤمن إلاّ بعلم الله. وردّ عليهم ابن قتيبة بقوله: " وهذا من تأويلهم لا يصح في نظر أو لغة"((٥)).

ويأخذ ابن قتيبة بأصالة الدلالة للفظ العربيّ في التأويل القرآني، وتأييد موقف أصحاب الحديث، ويسلك منهج المناظرة، ويؤيِّد ما يقدِّمه من ردود بالحجج والأدلة المأخوذة من القرآن، والسنة، والأقوال المأثورة، والشعر العربيّ الذي يحتج به، ويبرز بجلاء الدلالات الأصيلة لألفاظ وردت

---

(١) السابق: ١٠٠.
(٢) النحل /٩٣.
(٣) النحل /٩٣.
(٤) يونس /١٠٠.
(٥) الاختلاف في اللفظ: ١٠١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

في نصوص قرآنية ونبويَّة، ويقول: " أما النظر فإنه لم يقل أحد من النّاس أنَّ شيئًا يحدث في الأرض إلاّ بعلم الله.. وإنما اختلفوا في الإذن الذي هو المشيئة والإطلاق فقال المثبتون((١)): "لم يشأ أن يؤمن جميع النّاس، ولو شاء لآمنوا، فليس لنفس أن تؤمن حتى يشاء الله ذلك ويُطْلِقُه"، وقال أهل القدر((٢)): " قد شاء الله هذا لكل نفس وأطلقه، فلها أن تؤمن إن شاءت". وفي صدر هذا الكلام دليل على ما قاله أهل الإثبات؛ لأنَّ النبي ﷺ كان يحب إيمان قريش، فأنزل الله عليه: (ولو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلُّهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)((٣))، ثم قال على إثر ذلك: (وما كان لنفس أن تؤمن إلاّ بإذن الله)((٤))، يريد بمشيئته وإطلاقه، فأوَّل الكلام دليلٌ على آخره. والناس مجمعون لا يختلفون على أنَّ القائل إذا قال: " لو شئت لأتيتك أنه لم يشأ إتيانه"((٥)).

ويظهر ابن قتيبة دراية عميقة بالنصِّ القرآني حين يفسِّر الآيات المشكلة، مدركًا تطور دلالة اللفظ الذي قد يرد بشكل عام، ولكنه يعني ضمنًا معنىً خاصًّا، كقوله تعالى على لسان موسى عليه السَّلام: (وأنا أول المؤمنين)((٦))، ثم قوله على لسان محمد ﷺ : (وأنا أول المسلمين)((٧))، لم

(١) المثبتون: ومفردها المثبت، وهو الذي يثبت الصفات الإلهية. ويسمّون أيضاً الصفاتية.
(٢) أهل القدر: المعتزلة لكونهم يقولون بالتخلية والإهمال، وأن الإنسان تعود إليه أموره، ويكون حراً في القيام بأفعال ويكون مسؤولاً عنها.
(٣) يونس /٩٩.
(٤) يونس /١٠٠.
(٥) الاختلاف في اللفظ: ١٠١.
(٦) الأعراف /١٤٣.
(٧) الأنعام /١٦٣.

يريدا كُلَّ المؤمنين، وكُلَّ المسلمين في جميع الأزمنة، بل مؤمني زمن موسى ومسلمي زمن نبينا، عليهما السَّلام، وكذلك قوله تعالى في بني إسرائيل: (فضَّلكم على العالمين)[(١)]، لم يفضِّلهم على محمد ﷺ ولا أمتهم على أمته، وإنما أراد عالمي أزمنتهم[(٢)].

فابن قتيبة لم يفسر معنى اللفظ تفسيرًا سطحيًّا، وإنما فسَّره من خلال سياق الآية، وحدَّد دلالته الخاصَّة، مدركًا أن الألفاظ تكتسب دلالاتها من سياق الكلام. وأدرك بحسِّه اللّغويّ السليم أثر الحرف في تحديد معنى الآية، وتنبَّه لمحاولات الجهميَّة وأتباعها في إبدال بعض حروف القرآن بغيرها لإقامة مذهبهم، وردَّ عليهم، وأبطل قراءاتهم؛ لأنه رأى فيها تحريف المعنى عن جهته، ونَقْلَه عن سنته، وقال: "وحاول بعضهم إبدال حروفه بغيرها، فقرأ: (عذابي أصيب به من أشاء)[(٣)]، بالسين غير المعجمة والنصب، وقرأ وقرأ جميع ما في القرآن من المخلصين، بكسر اللام، وإن كان قرأ بذلك بعض القراء، يريد أن يجعل الإخلاص لهم، وألاَّ يكون لله فيه صنع، فكيف يصنع بقوله: (إنَّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار)[(٤)]. وقرأ: (ولا تحسبَنّ الذين كفروا أنّما نُمْلي لهم[(٥)] خيرٌ لأنفسهم إنَّما نملي لهم ليزدادوا إثمًا)[(٦)]، بكسر إنَّما الأولى وفتح الثانية، يريد لا يحسَبنَّ الذين كفروا أنَّما نملي لهم ليزدادوا إثمًا، إنّما نملي لهم خير لأنفسهم، فحرّف المعنى عن

---

(١) الأعراف /١٤٠.

(٢) الاختلاف في اللفظ: ١٠٥.

(٣) الأعراف /١٥٦.

(٤) ص /٤٦. ذكرى الدار: ذِكْر الدار: الآخرة أي ذِكْرها والعمل بها.

(٥) أنما نُمْلي لهم: أي إملاؤنا (لهم) بتطويل الأعمار.

(٦) آل عمران /١٧٨.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

جهته، ونقله عن سننه، وجعل الإملاء للكفار من الله إنما هو لخير يريده بهم.

وقد حمل بعضهم نفسه على أن قرأ: (ليزدادوا إيمانًا)، وألحقها في بعض المصاحف طمعًا في أن تبقى على الدهر ويجعلها الناس وجهًا[(١)]، وكيف له ما قَدَّر؟ والله يقول إلى جنبها: (ولهم عذاب مهين)[(٢)].

ويخوض ابن قتيبة معترك الرأي بمسألة خلق القرآن، وزاده في ذلك اللّغة، فينبري إلى مقارعة خصومه من المعتزلة بإبطال حججهم التي اعتمدوها من ألفاظ القرآن، بأنه مخلوق، فيعيد تأويلها مستخدمًا براعته اللّغويّة، ومقدرته على تقليب الكلمة على وجوه مختلفة تلائم معتقده، وتستقيم مع مذهبه الذي أقامه، فقد تزعَّم أهل السنة الذين يقولون بقدم كلام الله النفسي، وحدوث الأصوات والنقوش والأوراق والقلوب التي فيها الكلام اللفظي، وقال في ردِّه على المعتزلة: " وقالوا في كلام الله إنَّه مخلوق لأنَّ الله تعالى قال: (إنَّ جعلناه قرآنًا عربيًا)[(٣)]، والجعل يعني الخلق، ولأنه قال: (ما يأتيهم من ذكر من ربِّهم مُحْدَث)[(٤)]، فكل مُحْدَث مخلوق، وإنَّ معنى كلَّم كلَّم الله أوجد كلامًا و: (كلَّم الله موسى تكليمًا)[(٥)]، أوجد كلامًا سمعه. فخرجوا بهذا التأويل من اللّغة ومن العقول؛ لأن معنى تكلَّم الله أتى بالكلام من عنده، وترحمّ الله أتى بالرحمة من عنده، كما يقال: تخشَّع فلان أتى

(١) أي وجه من وجوه القراءة القرآنية عملاً بالحديث: " إنَّما أنزل القرآن على سبعة أحرف".
(٢) آل عمران /١٧٨. ولهم عذاب مهين: ذو إهانة في الآخرة.
(٣) الزخرف/٣.
(٤) الأنبياء/٢.
(٥) النساء/١٦٤.

بالخشوع من نفسه، وتشجَّع أتى بالشجاعة من نفسه، وتبتَّل[(١)] أتى بالتبتُّل من نفسه، وتحلَّم أتى بالحلم من نفسه، ولو كان المراد أوجد كلامًا لم يجز أن يقال تكلَّم، وكان الواجب أن يقال: (أكلم)، كما يقال: (أقبح الرحل أتى بالقباحة)و(أطاب أتى بالطيب)، و(أخَسَّ أتى بالخساسة)، وأن يقال: (أكلم الله موسى كلامًا)، كما يقال: (أقبر الله الميت) أي جعل له قبرًا، أو (أرعى الله الماشية) جعلها ترعى وأشباه هذا كثيرة لا تخفى على أهل اللّغة.."[(٢)]" وأما استشهادهم (بالجعل) على خلق القرآن في قول الله (إنَّا جعلناه قرآنًا عربيًا)[(٣)]، فإن الجعل يكون بمعنيين أحدهما خَلْقٌ، والآخر غير خَلْق. فأمَّا الموضع الذي يكون فيه خلقًا فإذا رأيته متعديًا إلى مفعول واحد لا يجاوزه، كقول الله: (خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)[(٤)]، فهذا بمعنى خلق، وكذلك: (وجعل منها زوجها)[(٥)]، أي خلق منها، وأمّا الموضع الذي يكون فيه غير الخلق، فإذا رأيته متعديًا إلى مفعولين، كقوله: (وقد جعلتم الله عليكم كفيلًا)[(٦)]، أي صيَّرتم، وكقوله: (فجعلناها نكالًا لما بين يديها وما خلفها)[(٧)]، وكقول القائل: " جعل فلان أمر امرأته في يدها"[(٨)]، فإن هم وجدوا في القرآن كله جعل، متعدية إلى القرآن وحده ليقضوا عليه بالخلق

---

(١) تبتَّل عن الزواج تركه أو زهد فيه.
(٢) الاختلاف في اللفظ: ١١٠.
(٣) الزخرف /٣.
(٤) الأنعام /١.
(٥) النساء / ١٨٩.
(٦) النحل /٩١.
(٧) البقرة /٦٦
(٨) جعل فلان أمر امرأته في يدها: أي أوكل إليها أمر طلاقها منه وليس له.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فنحن نتابعهم، وكذلك المُحْدَث ليس هو في موضع معنى مخلوق، فإن أنكروا فليقولوا في قول الله: (لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا)[(١)]، إنه يخلق، وكذلك قوله: (لعلهم يتَّقون أو يُحدث لهم ذكرًا)[(٢)]، أي يحدث لهم القرآن ذكرًا، والمعنى يحدث عندهم مالم يكن. وكذلك قوله: (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث)، أي ذكر حدث عندهم لم يكن قبل ذلك[(٣)].

فابن قتيبة يفسر اللفظ جاريًا على سنن العرب، ولا يزيل اللفظ عن ظاهره، ولا يتحمَّل في تأويله تأويلًا مجازيًا يبعده عن معناه الظاهر، مع شدة حرصه على عدم الوقوع في حبائل التجسيم والتشبيه، فهو يقر بصفات الله التي انتهى إليها الله عزّ وجل في صفته، أو إلى حيث انتهى إليها رسوله ﷺ ولا يزيل اللفظ عمّا تعرفه العرب وتضعه عليه.

وانطلاقًا من موقع ابن قتيبة السلفي فهو يعارض تأويل المعتزلة للمفردات القرآنية: العرش، الكرسي، عَجَل، خليل، فغوى.، مؤمنًا بالدلالات الأصيلة لتلك المفردات في مقابل عقلانية المعتزلة، ويدعم آراءه بآيات القرآن الكريم، وبالشعر العربيّ الذي يحتج به، وهو يغلِّب هذه المعايير والمبادئ في تأويل القرآن على ما عند المعتزلة من مجرد الرأي والنظر؛ ويرفض تأويل الجهميّة والمعتزلة كلمة (استوى) في الآية الكريمة: (الرحمن على العرش استوى)[(٤)]، بـ (استولى)، ويرى في هذا التأويل مجرد القول بالرأي، والصواب عنده تفسيرها بـ (استقر) ويدعم رأيه بورود الكلمة

---

(١) الطلاق /١.
(٢) طه /١١٣.
(٣) الاختلاف في الألفاظ: ١١٠ ١١١.
(٤) طه /٥.

المعنية في أكثر من آية قرآنية، وفي مأثور التخاطب العربيّ كأن يقول الرجل لصاحبه إذا رآه مستوفزًا: استوِ، وهو ما يعني بوجه آخر إجماع الناس، وقال في ذلك: " وقالوا في قوله: (الرحمن على العرش استوى)، إنه استولى. وليس يُعْرَف في اللّغة، استويت على الدار أي استوليت، وإنما استوى في هذا المكان استقرَّ، كما قال الله تعالى: (فإن استويت أنت ومن معكم على الفلك)[(١)]، أي استقررت. وقد يقول الرجل لصاحبه إذا رآه مستوفزًا (استو يريد استقر)، وأمّا قوله: (ثم استوى إلى السماء)[(٢)]، فإنه أراد عمد لها وقصد، فكل من كان في شيء ثم تركه لفراغ أو غير فراغ وعمد لغيره، فقد استوى إليه، فهذا مذهب القوم في تأويل الكتاب بآرائهم[(٣)]، وعلى ما أصّلوا من قولهم"[(٤)].

لقد صدر ابن قتيبة عن آراء ناضجة في تأويل مشكل الآيات، وأثبت نضجًا لغويًا، وعمقًا في الثقافة، واجتهادًا دونما مفارقة في ذلك للكتاب والسنة، وهديهما، أو تعمُّد للقياس. ويدعم آراءه بأدلة من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وبمأثورات التراث العربيّ، منافحًا عن دينه ولغته، مفندًا آراء خصومه، يبطل حججهم بتفقهه في أمور العقيدة، وامتلاكه ناصية اللّغة، والغور على خفاياها وأسرارها، وعلمه بدلالات ألفاظها الأصيلة واتساقها مع سنن العرب في التعبير وطرق القول ومآخذه، ولاشك أنه تأسّى بدراساته القرآنية بأئمة التفسير كابن عبّاس ومجاهد وغيرهما، وأفاد من

---

(١) المؤمنون /٢٨.

(٢) البقرة /٢٩.

(٣) بآرائهم: أي دون الرجوع في التأويل إلى نصٍّ قرآني أو حديث نبوي.

(٤) الاختلاف في الألفاظ: ١٢٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

آرائهم، ونقل كثيرًا في كتبه عنهم، مصرِّحًا بأسمائهم، ونهج نهجهم في تفسير غريب القرآن وتأويل مشكله، بالرجوع إلى شعر العرب وكلامهم، ولعلَّ هذا هو الاتجاه الأسلم لتجنب تحميل النص القرآني ما ليس له، كما يفعل أصحاب البدع والأهواء، وسلك منهجًا تطبيقيًا جديدًا في تأويل القرآن الكريم، أساسه رسم الصورة الكاملة، لإيضاح الفكرة، وبيان الغرض من النص القرآني؛ ولذلك لم يعن بالتعريفات والتقسيمات، بل انصرفت عنايته إلى الناحية التطبيقية فأكثر من الشواهد والأمثلة، مبينًا المراد منها، لتتحقق الغاية المرجوَّة، وهي فهم الفكرة وتقريرها وتأكيدها في ذهن القارئ، وخالف اللّغويّين والنقاد الذين كانوا يحتجون بكلام العرب على القرآن، فهو يورد النصَّ القرآني، ثم يتبعه بآيات القرآن الكريم وبكلام العرب شعرًا ونثرًا، وهو بذلك يحتج بالقرآن على الشعر وكلام العرب، ومحاولاته من هذا القبيل من مظاهر شخصيته المستقلة.

ولاشك أن أئمة اللّغة نهضوا بأداء مهمتهم مشمِّرين عن سواعد الجد بحثًا وتنقيبًا وتمحيصًا وتأليفًا ومناظرة، وانصرفت عنايتهم إلى موضوع تأويل مشكل القرآن، ونالت موضوعات العقيدة جلّ اهتمامهم، وبذلوا جهودًا كبيرة لتنقية العقيدة والرد على الملحدين الذين اعترضوا كتاب الله بالطعن والتحريف واللغو، وتصدوا لهم، وتسلحوا باللّغة ليردوا عليهم أقوالهم، ويفندوا مزاعمهم، ويبطلوا حججهم، معتمدين على قدراتهم اللّغويّة ومخزونهم اللّغويّ ليصححوا ما اعتقدوا أن خصومهم قد أخطؤوا فهمه، وقد أخذوا بأصالة الدلالة للفظ العربيّ في التأويل القرآني وتأييد مواقف أصحاب الحديث، وسلكوا منهج المناظرة، وتأييد ما يقدمونه من ردود بالحجج والأدلة المأخوذة من القرآن الكريم والسنة المطهّرة، والأقوال المأثورة،

والشعر العربيّ الذي يحتج به، مبرزين بجلاء الدلالات الأصيلة لألفاظ وردت في نصوص قرآنية ونبوية، وهم يصدرون عن خبراتهم بأسرار العربيّة، وفقههم بأساليبها، واستعمالاتها، ووقوفهم على خصائص التعبير فيها.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

نتائج الدراسة:

إنّ النتائج التي يمكن أن نستنتجها من هذه الدراسة تتلخّص في النقاط الآتية:

١ – قوَّم البحث جهود أئمة اللّغة المتقدمين لتأويل متشابه القرآن الكريم، وأبان عن المناهج التي سلكوها لتأويل مشكل الآيات التي اعتقدوا بأنها تحتاج إلى تفسير وتوضيح، وكانت جهودهم في هذا المضمار تعدُّ مؤشرًا على التأريخ لتطور البحث اللّغويّ عند العرب.

٢ – بيّن البحث أن السلف الصالح كانوا يراعون مبدأ الأمانة العلمية ويُعْلُون من شأن النقل، فما لم ينقل إليهم سليمًا مُسْنَدًا لا يجتهدون في تأويله، يحفزهم على ذلك إجلالهم لمضمون هذا الكتاب العظيم، وتورعهم من الاجتهاد الذي قد يعتوره شيءٌ من الظن والتخمين عند تأويل بعض الآيات.

٣ – أشار البحث إلى أن حوافز الدراسة اللّغويّة عند العرب كان مبعثها الحرص على فهم القرآن الكريم، وبوجه خاص فهم غريبه وتأويل مشكله، استكمالًا لفهم العقيدة الإسلاميّة وتنقيتها، وخدمة لها.

٤ – رصد البحث جهود أئمة اللّغة في استخراج أنواع المجاز في القرآن الكريم وتبويبها، لأن المجاز يعد القطب الذي تدور عليه قضية المشكل، ويعد عملهم في هذا المجال الأساس الذي اعتمد عليه علماء البلاغة، وبنوا عليه من بعد.

٥ – أكد البحث أن اللّغويّين المتقدِّمين اعتمدوا على اللّغة وشواهدها في تأويل مشكل آيات القرآن الكريم، فقد استخدموا عقولهم، وآراءهم الخاصة، وذوقهم اللّغويّ في تصحيح ما اعتقدوا أن خصومهم أخطؤوا فهمه، وقد تسلحوا باللّغة ليردوا عليهم أقوالهم، ويفندوا مزاعمهم، ويبطلو حججهم.

٦ – رسخ البحث الاتجاه إلى قدرات أئمة اللّغة وعلمهم بالقرآن وعلومه وقراءاته وبالعلوم الدينية من فقه وتفسير وتأويل، وبلغة العرب وعلومها، وبالشعر العربيّ الجاهليّ والإسلاميّ، وتوظيف ثقافتهم الموسوعية في خدمة النص القرآني وتأويل مشكله، بالرجوع إلى شعر العرب وكلامهم، ويعد هذا هو الاتجاه الأسلم لتجنب تحميل هذا النص ما ليس منه، كما يفعل أصحاب البدع والأهواء.

٧ – حدّد البحث مسالك اللّغويّين المتقدمين في توضيح مشكلات الآيات المتشابهات اللّغويّة والنحوية والصرفية، وهم يهدفون من هذا التبيين إلى هدم كل ما أشاعه المغرضون حول الكتاب الكريم من مزاعم التناقض والغموض والتفاوت في البيان.

٨ – انتهى البحث إلى أنّ أئمّة اللّغة اتّخذوا من أسلوب المناقشة والمناظرة والردِّ اللّغويّ سبيلهم إلى الإقناع، مؤيّدين أراءهم بالحجج والأدلة، ليزيلوا عن النّص القرآني كل لبس أو غموض، مستندين إلى معرفتهم العميقة بأسرار اللّغة، ووقوفهم الدقيق على ظواهرها اللّغويّة، ودرايتهم بعلومها.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المراجع والمصادر:

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، راجعه: سعيد المندوة، ط١، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٦م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٧٣م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، بيروت، ١٩٧٤م.
- البحث اللّغويّ عند العرب، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٨م.
- البحر المحيط، أبو حيّان النحوي الأندلسي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨هـ.
- البداية والنهاية، ابن كثير عماد الدين إسماعيل، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣٢م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٨م.
- بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنحاة، جلال الدين السيوطي، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤م.
- البُلْغَة في تاريخ أئمة اللّغة، الفيروز أبادي، حققه محمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢م.
- تحفة الأديب بما في القرآن من الغريب، أبو حيّان النحوي الأندلسي، حققه د. أحمد مطلوب و د. خديجة الحديثي، بغداد، ١٩٧٧م.

- تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، حققه السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٩٧٨م.
- التفسير الكبير، الفخر الرازي، نشرته المطبعة المصرية بمصر، ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م.
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م.
- الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه الحسين بن أحمد، حققه د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ١٩٧١م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق محمود محمد شاكر، القاهرة، ١٩٨٤م.
- دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م.
- دلالة الألفاظ عند الأصوليين، د. محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨٧م.
- الزينة في الكلمات الإسلاميّة العربيّة، أبو حاتم الرازي، حققه د. حسين الهمداني، دار الكتاب العربيّ، مصر، ١٩٥٧م.
- سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس، ابن عبّاس، حققه د.إبراهيم السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.
- طبقات المفسرين، الداودي، حققه علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٢م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

- ظاهرة التأويل وصلتها باللّغة، د. أحمد عبد الغفار، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.
- علم الدلالة العربيّ، النظرية والتطبيق، د. فايز الداية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.
- علم المفردات في إرثنا اللّغويّ، نشأة محمد رضا ظبيان، دار العلوم، الرياض، ١٩٨١م.
- العمدة في غريب القرآن، محمد مكي القيسي، حققه د. يوسف المرعشلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م.
- الفهرست، ابن النديم، حققه رضا تجدد، طهران، ١٩٧١م.
- في التحليل اللّغويّ، منهج وصفي وتحليلي، خليل أحمد عمايرة، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٧م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، أنقرة، تركيا، ١٩٤٦م.
- اللغات في القرآن، ابن عبّاس، حققه د. أحمد بولوط، مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٩٩٣م.
- مجاز القرآن، أبوعبيدة معمر بن المثنى، حققه د. فؤاد سزكين، القاهرة، ١٩٥٤م.
- مذاهب التفسير الإسلاميّ، كولد سهير، ترجمة د. عبد الحليم النجار، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٥م.

- مقدمتان في علوم القرآن (مقدمة ابن عطية ومقدمة كتاب المباني)، مكتبة الخانجي، مطبعة السنة المحمدية ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٥٤، نشر وتصحيح آرثر جفري.
- المفردات في غريب القرآن، الراعب الأصفهاني، حققه د. نديم مرعشلي، بيروت.
- نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن، أبوبكر السجستاني، حققه مصطفى عناني، القاهرة، ١٩٣٦م.
- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، حققه علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، القاهرة.
- الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، ابن قتيبة، حققه كاظم حطيط، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٩٠م.
- أساس البلاغة، الزمخشري، حققه عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٧٩م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٨م.
- تاريخ التراث العربيّ، د. محمد فؤاد سزكين، ترجمة عرفه مصطفى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، الرياض، ١٩٨٨م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، حققه السيد أحمد صقر، ط٢، القاهرة، ١٩٧٣م.
- التصور اللّغويّ عند الأصوليين، د. أحمد عبد الغفار، دار عكاظ للنشر، الرياض، ١٩٨٢م.
- ظاهرة التأويل وصلتها باللّغة، د. أحمد عبد الغفار، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- عقائد السلف، ابن قتيبة وأحمد بن حنبل والبخاري والدرامي، حققه د.علي سامي النشار، الإسكندرية، ١٩٧١م.
- علم المفردات في إرثنا اللّغويّ، نشأة محمد رضا ظبيان، دار العلوم، الرياض، القاهرة، ١٩٥١م.
- الفهرست، ابن النديم، حققه رضا تجدد، طهران، ١٩٧١م.
- فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي، حققه محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥١م.
- في التحليل اللّغويّ، منهج وصفي وتحليلي، خليل أحمد عمايرة، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٧م.
- قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة، د. عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، ١٩٨٢م.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، حققه د. فؤاد سزكين، القاهرة، ١٩٥٤م.

- مذاهب التفسير الإسلاميّ، كولد سهير، ترجمة د. عبد الحلـــيم النجـــار، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٥م.
- معاني القرآن، الفرَّاء، حققه محمد علي النجار وآخرون، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.
- وفيات الأعيان، ابن خلكان، حققه د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــــوع	رقم الصفحة
١	ملخص	٦٤٧
٢	Abstract	٦٤٨
٣	مدخل	٦٤٩
٤	جهود أئمّة اللّغة المتقدّمين في تأويل متشابه القرآن الكريم:	٦٥١
٥	نتائج الدراسة:	٦٨٤
٦	المراجع والمصادر:	٦٨٦
٧	فهرس الموضوعات	٦٩٢

تم بحمد الله